المرأة وشعريّة الأشياء في مجموعة سيرة مختلفة للشاعر (جاسم حسين الخالدي)

Women and the poetic essence of things in the collection of different biographies by the poet Jassim Hussain Al-Khalidi."

م.م. حسين هادي خضير كبة
مديرية تربية واسط
researcher numbers
Hussain Hadi Khudair Kubba
Wasit Education Directorate
hussianhadi889@gmail.com

الملخص:

استطاع النقد الحديث أن يتعمّق في تفاصيل الأشياء وماديّتها، كاشفًا من خلال ذلك التوغل الفجوات التي لم تستطع الاديولوجيا والصور الشعريّة السطحية من ملئها وسد ثغراتها، مما جعل الشعرية الجديدة من قلب الأفكار والمفاهيم القديمة عبر تغيير زاوية رؤيتها للنص الشعري، وذلك عن طريق اكتشاف عمق الأشياء وفضائها المشحون بالخيال، التي كانت عنصرًا رئيسًا في تكوين صوره،

إنَ ولوج الشاعر جاسم حسين الخالدي إلى العالم الشيئي في تجربته الشعرية وتوظيفه للأبعاد المخفية والدلالات العميقة للأشياء واللغة والأمكنة، الذي أبرزها في آفاقها الرحبة عبر تعالقها وترابطها بالمرأة، أنْ يرسم صورة جديدة، شاع بها تواتر الدفعات الشعورية والوجدانية داخل بنية النص الشعري. فجاءت المرأة وعلاقتها بالأشياء في نصوص الشاعر عناصر بنائية تجردت من أبعادها المادية الجامدة إلى أبعاد ومدركات ذهنية وأسطورية تمتد بأطرافها إلى عالم فسيح من الخيال والأفكار.

الكلمات المفتاحية: (المرأة والتقارب الدلالي مع الأشياء، اللغة، المكان، شعر جاسم الخالدي)

Women and the poetic essence of things in the collection of different biographies by the poet Jassim Hussain Al-Khalidi."

Abstract :
Modern criticism was able to go deeper into the details of things and their materiality, revealing through that penetration the gaps that ideology and superficial poetic images could not fill and bridge their gaps, which made the new poetics from the heart of old ideas and concepts by changing the angle of its vision of the poetic text, by discovering the depth of things And its space charged with imagination, which was a major element in the formation of his fantasies.
The poet Jassim Hussein Al-Khalidi's access to the objective world in his poetic experience and his employment of the hidden dimensions and deep connotations of things, language and places, which he highlighted in its broad horizons through its interdependence and interdependence with women, paints a new image, which is spread by the frequency of emotional and affective impulses within the structure of the poetic text. Thus, the woman and her relationship with things appeared in the poet's texts as constructive elements that were stripped of their rigid physical dimensions to mental and mythical dimensions and perceptions that extended their edges to a vast world of imagination and ideas.
Keywords: Women and the semantic rapprochement with things, Language, Place, Jassim Al-Khalidi's poetry.

مدخل تنظيري:

ترتبط خاصية الإبداع بشتى الفنون الأدبية "بمقدرة الإنسان على تخليص الكلم من القيود التي يُكبِّلُها بها الاستعمال وتطهيرها ممَّا يتراكم عليها من ضبابيّة الممارسة، فالإبداع إحياء للكلمة بعد نضوبها، وفي إحياء الكلمة بعث جديد للتجربة المعيشة في الذات والزمن"(المسدي، د. ت: ص١١٧)، وبما أنّ الشعر المعاصر شأنه شأن الفنون الأخرى، فقد أفاد من التفتحات الدلالية التي انزاحت إليها الأشياء عن طريق اللغة الشعرية.

فاللغة نافذة يطلّ من خلالها الفكر؛ لذلك أخذ الشعراء المعاصرون يجنون من ثمار هذه اللغة ما أينعت ونضجت منها، لتلائم طعم شعرهم ومذاقه، جاعلين كينونتهم

وهويتهم ومشاعرهم في عالم أشيائهم، التي احتفت بها نصوصهم الشعرية، فكانت تلك الموجودات والأشياء فضاءً مزدحمًا للحمولات اللاشعورية المستّبطَنة في نفوسهم، ومتنفسا لسياحة ذواتهم في دائرتها، جاعلين من خلال تلك اللغة "الموجود موجودا منكشفا بالفعل، وأن تضمنه من حيث هو كذلك، وفي اللغة يمكن التعبير في كلمات عما هو الأنقى وما هو أخفى، كما يمكن التعبير عن الغامض والشائع والمتداول"(هيدغر، ١٩٦٣: ص٧٤)، ومن "يقرأ الشعر العربي اليوم– خاصة في حركة الحداثة الثانية له، وأعني بها قصيدة النثر– يجد ثمّة مفارقةً كبيرةً بين مسعى هذه القصيدة الفنّي، وبين بناء الصورة الشعرية فيها؛ ففي جوهر علاقتها الفنيّة في اللغة حذفتْ من قاموسها التركيبة اللغوية الصارمة والقائمة على البنية العقلية – الذهنية، واقتربت من كلام الناس اليوميّ والمألوف والنادر والعادي، معلنة عن اكتشاف بقعة أداء جديدة ما كان لقصيدة الحداثة بحركتيها الأولى... وهي الرؤية الجديدة للأشياء من داخل العلاقة مع الإنسان"(النصير، ٢٠١٨: ص٧٧)، فقد استطاع الشاعر من إكساب الموجودات وعالمه الشيئي فسحة جمالية جعلها تمتلك القدرة على الانفلات من قيود سلطة الزمان والمكان، مثيرًا في دواخلها ما يثير حركتها، لتخرج من سكونيتها وجمودها.

المحور الأول: المرأة وشعرية الطبيعة.

أخذت المرأة وعلاقتها بالشيء عند الشعراء المعاصرين بعدًا جديدًا أعمق من البعد الرومانسي، الذي يتصل بذات الشاعر وتجربته الخاصة، وهو بعد اجتماعي يتصل بحقيقة المرأة التي "كانت ولا تزال ملجأ الرجل وملاذه، إذا أجدبت نفسه بالحوادث الآزمة والكوارث العاصفة، فيحس في حضرتها خصبا ولیناً وسعادة، ویرى في بسمتها الحياة وبهجة الدنيا وسعادة العيش"(الشايب، د. ت: ص١٧–١٨)، فهي حضن الإنسان الأول بشكل عام، وملهمة الشاعر بشكل خاص، فهي جزؤه الآخر الذي تتكامل معه روحه، لذلك لا يتسنى للشاعر سوى الرجوع لها والعودة لأحضانها. "فالمرأة ما إن تعتلي صهوة الكلمة في نص ما حتى تستولي على قيمته الدلالية"(مختار، ٢٠٠٠: ص٦١)، لذلك نرى أن استعمال الخالدي لعنوان المنجز الشعري خاصته (سيرة مختلفة)، وكذلك لوحة الغلاف (امرأة – أم يحملُها ابنها) للمجموعة الشعرية يتحدان معا لتقديم فكرة مقتصرة إيحائية مكثّفة تختزل ما في ضمير الشاعر وأفكاره، التي حاول ايصالها إلى المتلقي، فقد كان قادرًا على تشكيل الحدث وتصويره وايصاله بأسلوب تصويري يُظهر عمق الإنتماء والعشق للأسرة، والقرية، والإنسانية، مشدودا

بالماضي الذي ظل عالقا في نفسه ووجدانه؛ إذ "إن الطريق الوحيد للتعبير عن الشعور في شكل فني هو إيجاد معادل موضوعي له، أو بعبارة أخرى إيجاد مجموعة أشياء أو سلسلة أحداث تؤلف مكونات ذلك الشعور المحدد"(إليوت، ١٩٩٥: ص٢٩)، فموضوع المرأة وعلاقتها بالأشياء في الشعر، هو حوار "بين الذات الشاعرة وذوات الأشياء الناطقة"(بن عمر، ٢٠١٥-٢٠١٦: ص٧٢)، فتتخذ كينونة الأشياء أشكالا أخرى في رمزيتها، لذلك يحاول الشاعر في استعماله لدال المكان الذي نجده في سيرة أولى، وسيرة ثانية، وسيرة ثالثة، وامتلاك، وسيرة رابعة، وسيرة مقاتل، وجميلة، وغيرها من قصائد المجموعة، أن يشحنه بدلالات تعبر عن وفائه وحبه لتفاصيل ذلك المكان الذي استحال إلى اطلال ظلت صورها عالقة تتقافز على سطح الذاكرة، فتبعث في روحه مشاعر الشوق والحنين إلى ماضٍ يجد فيه الطمأنينة والحضن الدافئ، الذي فُقِد عنوة، "فعندمّا تشترك الاشياء بالحدث باعتبارها مكانا متعيّنا تصبح جزءًا من التاريخ، وعندما تشترك في الكتابة عن الأحداث التاريخية تصبح أشياء تاريخية؛ فالشيء هو تكوين ما بينيّ، بمعنى أنه يُوظّف الحدث للكتابة ويُوظّف الكتابة للحدث"(النصير، ٢٠١٨: ص٢٩).

وقد عمد الشاعر في مجموعته الشعرية (سيرة مختلفة) إلى إيجاد مقاربات دلالية بين المرأة والأشياء من خلال إضفاء سمة شاعرية على تلك الأشياء لتحيلها من صورتها الحسية، أو صورتها الوجودية الجامدة إلى صورة جمالية ذات دلالات ومعان مركبة على مساحة الصورة الشعرية، فالأشياء في نصوص الشاعر هي عناصر بنائية تجردت من أبعادها المادية إلى أبعاد ومدركات ذهنية واسطورية تمتد بأطرافها إلى عالم فسيح من الخيال والأفكار، فلم تعد الأشياء في نصوصه تساوق وجودها المجرد فحسب؛ بل أصبحت تلك الأشياء دوالاً على تعامد قوى الطبيعة وما تتضمنه من ديمومة في وجودها الممكن بكل ما احتوت عليه من منظومات وعلامات متشاكبة ومركبة تحيل إحداها إلى الأخرى بحرفة واتقان مختلف عن نمطية الفكر السائد، فلا يكمن اختلاف الشاعر في سيرته المختلفة عن طريق طبيعة أفكاره، أو طريقة عرضها، وإن قيل إن الشعر هو تفكير بالصور؛ بل كان اختلافه نابعا من برنامجه الجمالي للصورة الشعرية التي تترسخ في قصائده، ينتقل بقارئه من حقيقة الأشياء إلى سحر المخيلة، ومن جمال الخيال إلى حقيقة أشيائه، فلا يُدرى عندها أيهما الأجمل، ومن تلك التقابلات الدلالية، التي تزخر بها تجربة الشاعر، وتعبّر عن أصالتها وعمق انتمائها، هي صورة المرأة

والنخلة، فالنخلة هي الأم الثانية التي ارتبط بها الشاعر، كما في قصيدة (سيرةٌ رابعةٌ)؛ إذ يقول: (الخالدي، ٢٠٢١: ص٢٩)

كلَّما تذكرتُ النَّخلةَ
تذكرتُ أمي
كثيرًا ما أسميها باسمِكِ
فهي الوحيدةُ الَّتي تُجيدُ العَطاءَ
وهي الوَحيدةُ
الَّتي لا تُغادرُ الجُذورَ

إن للشيء من الشيء قياسًا وشبهًا، وفي اقتران الأشياء في بعضها يتولّد الجمال، وبهذا النص يقرن الشاعر صورة النخلة بالأم حتى تبدو من النظائر والأشياء، التي تحيل إحداها إلى الأخرى؛ "لأن أصل الأشياء والإنسان عجينة واحدة، صيّرها الله أشكالاً مختلفة، فاستوطنت كلّ واحدة منها الآخر على أشكال متباينة الظهور والتحقق"(النصير، ٢٠١٨: ص٨٩)، إذ تمظهرت صورة النخلة بدلالات جوهرية كاشفة عن ودائع فطرية تتسم بها طبائع المرأة (الأم) وتنفرد بها مشاركةً مع النخلة، فالإصرار، والظلال الوارفة، والصلابة، والجذور الضاربة في تخوم الأرض، وعدم الخذلان، هي صفات وسمات مشتركة بينهما تكاد تصل في تقاربها حد الاشتراك في الاسم نفسه (كثيرًا ما أسميها باسمِكِ)، ويشير الشاعر باستعماله للفعل (تذكرت) إلى أنّ هذا التناظر في أمومة المرأة والنخلة ليس مفهومًا حادثًا على بيئته، أو طارئًا على ثقافته وحيثياته التاريخية، فالذاكرة جزء من التاريخ الإنساني، وليس المقصود والمراد هي ذاكرة الفرد المستقلة عن عمقه ومنبعه وحضارته، وليس ذاكرة لحظية مرتبطة بأحداث لا تلبث أنْ تتلاشى بعد وقت قصير، وإنما المقصود الذاكرة الثقافية التاريخية، التي تدوّن المراسم التذكارية من المعالم، والأساطير، والطقوس في حياة الشعوب والأمم، وبهذا يعبر الشاعر عن أصالة تجربته الشعرية، فهو على مستوى مساحة النص، لم يكن عازبًا أو غاربًا عن صورته الشعرية بقدر ما كان جزءاً منها راويًا لها تمتد جذوره إلى اعماق الطين حيث تصل جذور النخلة، فيقول في القصيدة ذاتها:(الخالدي، ٢٠٢١: ص٢٧-٢٨)

أيُّتها النَّخلة
لا أدري لماذا
أراكِ وحيدةً في العراءِ
سمعتُ مرَّةً:
أنَّ أمي ألقتْ بسرِّي
في المدرسةِ القريبةِ منك؛
فسقطْ منْهَا
دُونَما تَدْري
فانْغَمر في تُرابِك
كلَّما غبتُ عنكِ
تذكرتُ حبليَّ السريَّ
وأمي

أيُّتها الوحيدةُ في العراءِ
من يَحنُو عليْكِ
ويهوِّنُ الغُربةَ؟
مَنْ يفرحُ...
بسلالِكِ الملأى بالرّطبِ؟

لقد شكلت النخلة حضورًا نصيًا في شواهد الأشياء كونها كيانًا رمزيًا دالاً على الوجود الإنساني، فهي تقف شريكًا فاعلاً للمرأة والأرض في عالم الأمومة، من خلال التجليات الشعرية وشواهد الموجودات النصية تبين جليا العلاقات الجمالية بين جزيئات النص وشواهده التي وظفها الشاعر كدوال على حركة الحياة وتبادل الأدوار، ليكون كل منها نافذة رمزية تطل على الآخر والقاسم المشترك بينها (الحبل السري) الذي يشكل رابطًا حياتيًا مصيريًا بين الوليد وأمه، فبعد أن كان الحبل السري عاقدًا للصلة بين الإنسان وموطنه الكوني الأول (رحم الأم)، وهو بين الوجود والعدم، جعل منه الشاعر سفرًا آخر للتكوين في رحلة البحث عن ولادة جديدة وجسرًا نفسيًا إلى عالم الأمان والحماية الرمزية، وهذه الكينونة المتدحرجة من رحم الأم إلى رحم الأرض والاندماج في أديمها والتشابك مع جذور النخلة، قد جاءت لتأطير الحدث بإطار يستمد قدسيته من قداسة الأم ومكانتها في عالم الموجودات عند الشاعر وبيئته، وكذلك من قداسة الأرض نفسها كونها تحيل إلى بدايات التشكيل الأول للإنسان وأسطورة الخلق والنشوء، وبين الكينونة الإنسانية والكينونة الأسطورية تتم المقاربة وتنعقد الصلة عبر الحبل السري بشعرية المواجهة بين المرأة والأرض والنخلة، وهذه المحاور الثلاث تمثل في النص إشكالية (الذات والجسد والهوية) عبر مقاربات نفسية وتقلبات ولادية تبدو فيها شخصية الوليد متجذّرة ومندكة في عالم الأمومة وأطوارها.

وبلحاظ آخر بعيدًا عن التقابل والتناسب الطردي لأدوار الأمومة نرى أنّ النص يحتمل جانبًا آخر قائمًا على التقابل الدلالي بتوظيفه لعنصر الضد النوعي الذي يشابه ويطابق ضده في الشكل ويغايره في المضمون، فرغبة الأم بدفن الحبل السري لوليدها في المدرسة، إنما هو تعبير عن حرصها بتوفير حياة عصرية آمنة وفارهة تتماز بالترف الفكري والاجتماعي للوليد يقابلها في النص مشيئة القدر الذي يتجاهل رغبات الإنسان في كثير من الأمور الفاصلة، ويشدّه إليه وهي جنبة فلسفية يضمّنها الشاعر نصه ويحزم أمره فيها، ويبيّن بقراره بأن الانتماء للأرض والفناء فيها إنما هو قدر محتوم تتضاءل إرادة الإنسان إزاءه، فهو مجبر لا مختار بالتعلق في الوطن والذوبان فيه، فتلك سيرة العقلاء وشيمة الأسوياء، فيزداد تعلق الإنسان بوطنه وهويته كلما زادت التهديدات والمؤثرات

الخارجية وتضخمت المخاطر، كالحروب؛ إذ يقول في قصيدة (سيرةٌ ثانيةٌ): (الخالدي، ٢٠٢١: ص١٦)

لوَجْهِهَا الَّذي يفيضُ سُمرةً
وضحكتها الَّتي لا تُفارقُ وجوهنا
كم منَ السَّاعاتِ نحتاجُ لكي نصلَ إلى
عُذوبةِ صوتِها
لنخلتِنَا التي ما زالتْ شامخةً في بابِ بيتنا
بيتُنا الذي لا بابَ لهُ
ولا سقف
بيتنا الَّذي أحالتهُ الحربُ إلى طللٍ بالٍ
لقد تغيَّرَ كلُّ شيءٍ
لمْ تتغير الوجوهُ؛
بل خرجتْ عن الخدمةِ

يعمد الشاعر في النص على ايجاد نقاط التشابه الخفية بين المرأة والأشياء وتفعيلها، والبحث عن الجذور الدلالية التي تشترك بها معًا، التي يمكن عبرها الجزم بالتطابق الإيجابي وتوظيفه في الصورة الشعرية، فـ"إن سيطرة الجوهر الأنثوي على المخيلة الإنسانية قد فتح المجال للفن عموما وللشعر خصوصا كي يمتاح من هذا الجانب، متخذاً من المرأة عنصرا فعّالا في إثراء البنية الدلالية للنص"(مختار، ٢٠٠٠: ص٦١)، ففي أزمنة الحرب يكون الرجال منشغلين في ميادين القتال، فتناقص حينها مرتكزات الأمان، وينتقل المجتمع حينئذ من الداخل الى أحضان المرأة وعالمها المترع بالأمان، فإن المجتمعات الفتية الميالة للحروب وكل أهل الحرب يسلّمون دائما مقاليد حكمهم إلى النساء في الداخل وينقادون أليهن(سانتهيلير، ٢٠٠٩: ص١٦٩).

كما أنّ لدال النخلة وارتباطها بالمرأة دلالات رمزية تستمد وجودها من واقع الذات الشاعرة، فالنخلة مأذنة الحب ورمز العطاء والكبرياء ورمز التاريخ العتيق تقف هناك على مشارف وطن متهالك لا باب له يمنع المتطفلين من هتك قداسته ولا سقفا يحمي أبناءه من قساوة البرد وضراوة صروف الدهر، وهي صورة مؤلمة لوطن مختلف يعيش حاضرًا في مكنون الذاكرة الجمعية، و"هذا المفهوم الملتزم الجديد هو الذي وثّق الصلة بين المرأة والنخلة وطابق بينهما فنيا، لأنه كشف عن توحّد المضمون الاجتماعي والسياسي بينهما. فلم تعد المرأة أنثى ذات جسد جميل مثير يصلح للوصف، وكما يربطها بالنخلة هو هذا الشكل الخارجي الجميل فحسب"(الهاشمي،١٩٨١: ص٢٢٧)، بل "إنّ النخلة امرأة صابرة صامدة تعطي بصمت وإحساس دفين بالقهر، والمرأة نخلة منتصبة في عناد ومكابرة رغم ظروف الجفاف والجو الخانق من حولها. هذه هي بذور العلاقة بين المرأة والنخلة في الأساس، وقد نمت هذه البذور بمرور الزمن وامتدت أغصانها وتشابكت وأصبحت غابه معقدة مظلمة من العلاقات والروابط والصلات،

شكليًا ونفسيًا واجتماعيًا وسياسيًا وفكريًا" (الهاشمي،١٩٨١: ص٢٢٧).

وفي قصيدة (النافذة) تتواشج الأنثى مع عالم الشاعر الشيئي، متخذًا من هذا الترابط والتعالق وسيلة لبلورة تجاربه الشعرية، محاولًا في الوقت ذاته نقلها إلى المتلقي بصورة حية نابضة، فيقول:(الخالدي، ٢٠٢١: ص١٠١)

قبلَ أنْ أنامَ
أتركُ لها قبلةً
على خدِ نافذتِها
على تلويْحتِي
تفزُّ الطُّيورُ
أهرعُ
مغمورًا
بالألحانِ
قربَ نخلتِهَا
دفنتُ سرَّتي
لستُ
منشغلاً
بالطُّيورِ
لكنني دائمُ الانشغالِ
بالأغاريدِ
.....
يغدو الزُّجاجُ
قطعةَ نورٍ
منذُ أزلٍ
أرقبُها
قصيدةً
أو شَهْقةً

تقوم هيكلية النص على لقطات فوتوغرافية تتضام فيما بينها لتشكيل الكيان الأسطوري للنص، فالمرأة والنخلة والطيور والألحان كلها أشياء تخرج من حيزها الواقعي إلى دلالات أسطورية عبر نافذة الشاعر، التي يسعى من خلالها إلى إعادة اكتشاف نفسه عن طريق إعادة اكتشاف الموجودات ومحيطه الشيئي، فالطائر في الأسطورة السومرية (الغراب وخلق شجرة النخيل)، هو الذي خلق النخلة بأمر الإله أنكي من الكحل واللازورد، الذي تتزين به المرأة (الشواف، وأدونيس، ١٩٩٦: ص٨٧-٨٨).

كما أنّ طائر الفينيق ومرموزه وطمطمه، والنخلة كلاهما يرمزان إلى الولادة والتجدد والقيامة والانبعاث، وهي من صفات المرأة، وفي الميثولوجيا الإغريقية أنّ كل من الآلهة (أبولو، ونبتون، وذيلين)، قد ولدوا تحت نخلة، كما يولد يسوع الناصري في المسيحية تحت جذعها(عبد الحكيم،٢٠١٢: ص٥١-٥٢-٥٣)، "وكان أهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم عظيمة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة فإذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ النساء"(الحموي، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م: ص٢٦٦)، وفي أسطورة سميراميس كاهنة الحمائم "إنها حينما وُلدت من رحم أم سماوية كانت قد تركتها في الخلاء عقب ولادتها،

فتعهدها بالرعاية سربٌ من الحمام، كما أنها حين ماتت تحولت إلى حمامة"(عبد الحكيم،٢٠١٢: ص٤٨)، وكل تلك الطقوس والأساطير، إنّما جاءت بترنيمات وأناشيد وألحان لبناء الجسد الحضاري الإنساني، فهي أزلية كما أشار الشاعر بقوله في نهاية نافذته (منذ أزل أرقبها قصيدةً، أو شهقةً)، وهذا الحضور النصي للموجودات والأشياء في صور الشاعر يشي بنزعة صوفية تتملك رغبة الذات الشاعر في الدوران حول العالم، وموجوداته لتحقيق فكرة وحدة الوجود.

وفي مقطعٍ آخر من قصيدة (امرأةٌ مغايرةٌ)، نرى هذه الصلات والروابط تنعقد بشكل أوثق، لتتجاوز، مع تزايد وعي الشاعر بحقيقة المرأة ومكانتها وقيمتها في نفسه؛ إذ يقول:(الخالدي، ص٢٠٢١: ص٦٨)

توهمتُكِ وَرْدَةً
فوجدتُكِ بُستانَ وَرْدٍ
توهمتُكِ عِطرًا
فوجدتُكِ الهواءَ

بين ثنائية الحدس والمفهوم تتمفصل إشكالية الوهم في سياق النص من خلال التماثل القائم بين المرأة وشعرية الأشياء، فإنّ تمثيل كيان المرأة بالوردة، أو العطر هو وهمٌ قائمٌ على معطيات حسية ومدركات عقلية زائفة، أو حدسًا ساذجًا بسيطًا ناتج عن فهم منقوص مرده القصور في المدركات الحسية للمفاهيم الكلية لصورة المرأة في الوجود، فشعرية الأشياء لا تقوم على الحدس المجرد والكلمة العابرة، ولكن "إذا ظهرت الشاعرية أي وظيفة شعرية بلغت في أهميتها درجة الهيمنة في أثر أدبي، فإننا سنتحدث حينئذ عن شعر"(ياكبسون، ١٩٨٨: ص١٩)، لذلك نرى أن النص قد تدارك الأوهام لينعطف إلى الأفكار والمفاهيم الكبرى للمرأة، فالصورة الشعرية التي هيمنت على المشهد الشعري بتمثيل المرأة بالهواء الذي لابد منه، والبستان المتناهي في الجمال، وربما كان هذا الوهم في إدراك الفهم الكلي لكيان المرأة وقيمتها في الوجود، هو السبب الرئيس في خلخلة منظومة العلاقات بين اقطاب الوجود الإنساني الرجل والمرأة، فيقول الشاعر في نص آخر من قصيدة (وحيدًا يموتُ)(الخالدي، ٢٠٢١: ص٣٨).

حين توهمتها أنْثَاي؟
أرَاهَا
ملكًا وتراني شيطانًا
وأرشها بماءِ الوردِ
وترجُمني بالحَجرِ
أرسمُها
وَردةً
قديسةً
وترسمُني غولًا برأسيْنِ.

المحور الثاني: المرأة وشعريّة اللغة.

يبقى الشاعر ابن اللغة وربيبها- إنْ جاز التعبير- يجلّها إجلال الكبير، يخلق متعتها، تبعا لمهارته وقدرته، ودرجة تحتثه للكلمات في نقل ما في حنايا نفسه وكينونته من إحساسات عميقة، وشحنات انفعالية، لتكون تلك الكلمات ترجماناً لما تشعر به نفسه، وما تتأمله ذاته، فـ"نحن لا نخرج من قصيدة الشاعر مدججين بالمعنى، بل نخرج منها وقد مسّنا شيءٌ غير قليل من هذيانه ودفئه وفوضاه، شيءٌ وفيرٌ من سحره الاستعاريّ وسطوته المجازية"(العلاق، ٢٠١٨: ص٢٠٤)، وعلى هذا الأساس، فإن للغة في الخطاب الشعري شريعتها الخاصة، وفرادتها المائزة إذا ما قورنت بمثيلتها في الخطابات الأخرى، فالشاعر في لغة الخطاب الشعري ينتج الدلالة بلغة المجاز والانزياح الفني، ولعل هذا يؤكد أنّ لغة الشعر "لغة اختلافية؛ بوصفها لغة المغايرة؛ والاختلاف الدائمين؛ والقصدية المضمرة أو المبطنة"(شرتح، ٢٠١٦: ص٤٧)، لذلك كانت مفردة (المرأة) لتشكّل واحدًا من مصادر شعرية الخالدي، التي حقنت لغته بجرعة إضافية من الثراء والجاذبية، فحضور المرأة وتعالقها مع عالمه الشيئي تمثل شعرية خاصة، لا تنحصر في صيغ تعبيرية محددة، كاشفة أيضًا عن حضوره الداخلي وحالته الوجدانية؛ إذ يقول: في قصيدته (وشاةٌ طيبون) (الخالدي، ٢٠٢١: ص٧٨)

مرةً
رأيتُ امرأ القيسِ
واقفاً
عندَ بابِ القصيدةِ
ناديتُ: يا امرأ القيسِ
غابَ ولم يردْ
حاصرتُه الكلماتُ فتشظَّى
قد تصنعُ من الكلماتِ معانيَ
ما يجعلكَ تذوبُ
وتنزفُ
حينَ تشكّلُ من الحروفِ أنثى
ومن الكلماتِ قصيدةً

إنّ شعرية اللغة الممتزجة بمشاعر الأنثى، هي التي تحقق للنص بعده المتعالي في مضامينه الثقافية، والاجتماعية، والرمزية، وكذلك الوجودية؛ إذ إنّ حروف اللغة بما هي حروف مستقلة، لا تستطيع التحليق إلى فضاء الإبداع إلا بجناحين، جسد المعنى وروح المشاعر، كما أنّ تشكيل الحروف بقالب أنثوي هو اعتراف بأن الأنثى هي مصدر الجمال في اللغة وآدابها، ففي النص إنّ حياة المبدع، أو موته، أو غياب أمرئ القيس عن مشهد الحدث ليس عنصرًا مهمًا في خلود قصائده؛ بل المعاني الإبداعية، والمختلطة بدفق المشاعر الأنثوية، والمنبعثة في بؤرة الصراع الوجودي، هي التي وهبت قصائده الديمومة والخلود، فالأنثى، هي القنطرة التي تُتيح للغة

الاجتياز إلى شاعريتها، وهذا ما أكده الشاعر في مقطع آخر من القصيدة نفسها؛ إذ يقول:(الخالدي، ٢٠٢١: ص٧٤-٧٥)

قبلَ أنْ تَغلقي كتابكِ
تذكَّري
قصائدي المزدحَمةَ أمامَ بابِكِ
تنتظرُ التَّرحيبَ

وهذا التماثل الجمالي بين الأنثى وشعرية اللغة في قمة هرمها الجمالي جعل الأنثى هي الوحيدة القادرة على استنطاق المعاني العميقة للنص؛ إذ يقول الشاعر في قصيدته (طينٌ):(الخالدي، ٢٠٢١: ص٦٥)

تَسألُني:
مَنْ وراء قَصائدِك
وَهيَ الوَحيدةُ
الَّتي تستطيعُ استنطاقَهَا
كُلَّما أحْملُها معي
يَنْتَهي عندَ بَلاغتِها

فالكلمات كيانات لها معانٍ محددة في أصل الوضع حتى إذا دخلت الأنثى إلى شعريتها مكّنتها من العروج والانعتاق إلى فضاء التأويل، والشرح، والتفسير، والتحليل، وتجاوز أزمة المعنى الواحد، واستبدالها بقراءات متعددة للوصول إلى المعاني البلاغية الغامضة والخفية فيها "وتقف أسوار اللغة ودهاليزها العميقة والسحيقة لتضمرها من داخل محاط بتاريخ عريق من الاستعمال والقبول مما شكل ذائقة اللغة وذائقة مستعمليها الذين استجابوا لرمزية المفردة (المرأة) ولجمال هذه المفردة"(الغذامي، ٢٠٠٦: ص١٧٩)، فرمزية مفردة المرأة، هي من المطالب البلاغية المتعالية، التي ترتقي بالنص إلى قمة الإبداع، أو تحط به إلى قاع الهزيمة والانكسار في حال الخلل، أو التقصير، كما في قوله من قصيدته (وشايةٌ أخرى):(الخالدي، ٢٠٢١: ص٧٢)

وإلقاءَ الشّعرِ بينَ يديْهَا
مغامرةٌ
والخطأُ في الصُّورةِ
جنايةٌ
والخطأُ في النحوِ
خطيئةٌ
والعَبثَ باللغةِ
شَتيمةٌ
والخللَ في العَرُوْضِ
خِيانةٌ

المحور الثالث: المرأة وشعريَّة الأمكنة.

تتجلى فاعلية الأمكنة وأهميتها في النص الشعري من خلال تحولها إلى أشكال ومستويات مختلفة، فتكون الأمكنة بذلك مرآة عاكسة تبعا للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر لحظة الشعرية، ففي عالم الشعر تتشابك فاعلية الأمكنة حتى تتلاشى خيوط محدوديتها في القصيدة، لتكون أهمية المكان نابعة من جانبين رئيسيين هما: إنتاج النص،

والدور الذي يؤديه المكان نفسه من حيث حمولاته الدلالية، فغالبا ما يكون المكان رمزا للشاعر نفسه والبيئة الاجتماعية والثقافية التي يتربع فيها.

وقد أصبح المكان في عملية الإبداع عند الشعراء المعاصرين أكثر تناغما وفاعلية؛ لأنه يؤلف "الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، ذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات"(عقاق، ٢٠٠١: ص٢٧٩)؛ إذ يختزل المكان تجربة شعرية لا يمكن من ترسيمة حدودها بسهولة، ألزمت الشاعر بتقاسم نوازع الواقع والخيال معا لدى سلطة المكان، الذي صار يتحكم بوجود الشاعر؛ لاسيما الذي يحظى بارتباط وثيق بسمات جغرافية معينة، كالقرية وما تحمله من ذكريات، قد جسدتها أكواخها وطرقها البسيطة، التي تقود "لرؤية أنفسنا كما كنا فيها لحظة بلحظة إلى كتابة أماكننا، إحيائها واعادة انتاجها في فضاء من الكلمات"(عباس، ٢٠٠٩: ص٣٧)، فعادة ينشأ المكان حينما يُضاف إليه البعد الإنساني عبر استدعاء موجودات تلك القرية، لتصبح بذلك مادةً للشاعرية، ويصير المكان الذي ينتمي إليه الشاعر جسدًا وروحًا واجهة تتصدر عمله الشعري.

لا شك في أنّ للمكان بمعناه الحقيقي والمجازي أهمية بالغة الأثر في بلورة تجاه الشعر، وكشف أبعادها وترسيم معالمها بدقة متناهية للمتلقي؛ لأنّ الشاعر في آخر المطاف هو ابن البيئة التي ينتمي إليها، وصورة معكوسة من صور المكان وتجلياته، فالمكان جزء لا يتجزأ من كيان الشاعر، ولا يمكن الانسلاخ منه، ولا يستطيع العيش بمنأى عن واقعه، مهما تجرّد عنه – في شعره – وحلق بعيدًا في سماء الخيال؛ لأن هناك دالة بصورة أو بأخرى– عن كينونة الشاعر وماهية الواقع؛ وصوره المرسومة في حنايا نفسه(شرتح، ٢٠١٠: ص٢٠٢)، وعلى هذا يكون، "المكان في الشعر هو تشكّل خاص مقوماته اللغة والخيال اللذان يتحولان به من مجاله الفيزيائي الضيق إلى مجال نفسي وخيالي وشعري عظيم، لهذا فإن المكان الشعري يحمل رؤية الشاعر وموقفه من العالم، مما يجعل دراسة عنصر المكان أساسا يعتمد عليه في فهم الشاعر ودراسة نصوصه الإبداعية، ومن هنا تنبع أهميه دراسة المكان في الشعر"(الحافظ، ٢٠٠٣: ص٢٥٠)، فعلاقة الصورتين الحقيقية الفيزيائية والمجازية للمكان، هي في طبيعة الحال علاقة جدلية ومعقدة؛ ولعل هذا ما يجعلنا ننظر إلى الصورة الشعرية على أنها تمثل المكان النفسي، وليس المكان المقيس المرتبط بالمفردات العينية له، ولذلك يحاول الشاعر من شعرنة أمكنته وربطها مع المرأة، ليكون المكان لديه مرآة عاكسة لما يختلج في نفسه من ألم وتشظي، إذ يقول في قصيدة

(لا تفسدوا العالم):(الخالدي، ٢٠٢١: ص٤٧)

وهو يمسكُ بالأرضِ
كانتْ أظفارهُ في خللِ التُّربِ
فيبكي
أصرخُ يا أمُّ
فتلتفتُ الأرضُ

تتخذ المرأة في نص الشاعر عنصراً متكافئاً طبيعيًا للأرض (المكان)، فهما يشتركان معا في أمومة الإنسان وأسباب وجوده، ويستجيبان لصراخه واستغاثته، مثلما يتقاسمان رعايته، وتوفير ملاذه ومأواه، ففي النص يتحرر المكان من معنى الاحتواء والأبعاد الثلاثة إلى مثير حسي تتوالد من خلاله المعاني ويتشكّل فيه الخيال، فـ"المكان يدعونا للفعل ولكن قبل الفعل ينشط الخيال"(باشلار، ١٩٨٤: ص٤١)، وفي لحظة الصراخ والألم والتوتر الحسي والفكري، التي عبر عنها الشاعر (اصرخ يا أم) تكون الاستجابة عند المتخيل المكاني أسرع وأسبق ممّا هي عليه عند الأم البيولوجية، (فتلتفتُ الأرضُ)؛ لأن المكان هو الوسيط الذي ينقل انفعالات الشاعر وصدق تجربته الشعرية إلى الآخر، وبهذا يكون المكان الشعري من المقولات الاجتماعية، ويستمد دلالته من تجارب الإنسان وثقافته ومخيلته، مثلما كانت المرأة محور المقولات الاجتماعية أيضا، ومن هذا التدافع الدلالي لعنصريّ المكان والمرأة، تتكون الوظيفة الشعرية والقيمة الفنية للنص "فالوظيفة الشعرية تتحقق عندما تسقط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار (أي البدائل) على محور التأليف (أي الموقع) التي ينبغي لها أنْ تكون متكافئة أيضا"(إسكندر، ٢٠٠٤: ص١٣٩)، وربما فقد المكان شعريته وعاد مسمىً جغرافيًا مجردًا من الدلالات والرموز المكانية؛ إذ لم يكن مرتبطًا بالحس والتجربة الوجدانية، فالجغرافية لا تعنِ للشعر شيئاً، ولا تؤدي وظيفة شعرية تأثيرية وانفعالية، إذا أُفرغ المصطلح المكاني من حميمية المشاعر وسلطة الخيال في معجم الشاعر وتجربته، بل ويصبح المكان باعثاً على السؤم والانكسار، كما في هذا المقطع من قصيدة (مشغولٌ)؛ إذ يقول:(الخالدي، ٢٠٢١: ص٤٢)

سئمتُ بيتي الَّذي لا يسعني
وطريقي
الَّذي لا يَصِلُني
إليكِ

وقد يتخذ المكان جانبًا سياسيًا، وشاهدًا على ظلامة الإنسان، واغتصاب هويته، واستباحة حرمته، فيقول في قصيدة (جميلة)(الخالدي، ٢٠٢١: ص٥٠-٥١)

في (العرب الفوْقانيّة)
جلستُ وحيدًا
اترقبُ خُطى القادماتِ

اتَمعَّنُ وجُوههنَّ
وأعيدُ الكرَّةَ
غيرَ أنَّ (جميلةَ)
اختفى ظلُّها
ولم استطع أن ألمَحَها

فرمزية جميلة دالاً على الجمال والعذوبة الأنثوية، التي استباحها الطغاة ونفوها من مواطنها وأرضها، ويكمل الشاعر قصيدته، لتكون دالاً على ذلك التعالق بين المرأة والمكان، فيقول: (الخالدي، ٢٠٢١: ص٥٣-٥٤)

لا (العرب الفوْقانيّة)
ولا (العرب الجوانيةَ)
ولا (جميلةَ)
ولا الْبِئرَ
وحدهُ يردّدُ....

وقوم النص على مبدأ التضاد الذي يعد عنصراً مهما في بنية قصيدة النثر؛ إذ "تكمن في اعتمادها على الجمع بين الاجراءات المتناقضة"(لفتة، ٢٠٢١: ص٥٣)، فالشاعر يتخذ من توظيف التضاد بين العرب الفوقانية والعرب الجوانية دالاً رمزيا على العالم العلوي (الحياة)، والعالم السفلي (الموت)، فنفي الإنسان من محيطه وموطنه، يعني أنه يكون معلقاً بين الحياة والموت، ولا يبدو المكان في نص الشاعر أفضل حالٍ من جميلة، فهو الآخر شاحب خالٍ من مظاهر الحياة، إلا من مغنٍ ينادي الراحلين بلا جدوى (جلسَ المغني يردِّدُ/ كلما عدتُ إليها/ فيلتفتُ/ لا جميلة)، فالأماكن تموت برحيل أهلها، وتعيش بساكنيها.

النتائج:

- تؤلف الأشياء في النص الشعري الحديث ركيزة أساسية؛ إذ عن طريق شعرنتها يسلط الضوء على الحقائق التي يرغب الشاعر في إيصالها وإعادة تصويرها، حتى باتت الأشياء في نص الشاعر فاعلة على تصوير مواقف الحياة، وهذا بدوره يجعل المتلقي يقرؤها في ضوء التجربة الشعرية، أو يقرأ تجربة الشاعر الشعرية في ضوء توهجها في النص.
- تعامل الشاعر في تجربته الشعرية مع عالمه الشيئي تعاملا يتسم بوعي وإدراك ماهية الموجودات والأشياء؛ إذ استطاع أن يحولها إلى أسلوب شعري مائز، وأداة تعبيرية، ومصدر مهم لصوره الشعرية، فلم يقف عند ضفاف اللفظ المألوف للشيء، وحدوده المادية المجرد، بل أخذت أشياؤه أبعاد ومدركات أكثر عمقا وعالما فسيحا من الخيال والأفكار.
- استطاع الخالدي عبر إدراكه بأهمية الصلات والروابط القائمة بين المرأة والنخلة، التي تجاوزت حدودها الشكلية الجمالية في واقعية منظوره، فأخذت تلك العلاقة لديه وجها جديدا أكثر فنية وأعمق دلالة نابعة من

صميم تجربته النفسية والفكرية، فلم تعد المرأة والنخلة مرادفا لغويا للخصوبة فحسب؛ بل غدت واقعا نفسيا تربطه بمجمل تجربته.

- ألفت مفردة المرأة واحدًا من مصادر شعرية الشاعر، التي حقنت لغته بجرعة إضافية من الثراء والجاذبية، فكان حضور المرأة وترابطها مع الأشياء في نصه الشعري لا ينحصر في صيغ تعبيرية محددة، يكشف أيضًا عن حضوره الداخلي وحالته الوجدانية.
- تتمظهر عمق علاقة الشاعر بالواقع في نصه، فالواقع ينثر أشياؤه على نصه؛ فيضفي عليها محليتها وينغّم حواسها بطريقة المزج بين كينونتها أشياء واقعية وكينونتها لغة، مما يدل على أصالة تجربته.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- سيرة مختلفة، جاسم حسين سلطان الخالدي، منشورات اتحاد الأدباء، العراق، ط١، ٢٠٢١م

المراجع:

- اتجاهات الشعرية الحديثة الأصول والمقولات، يوسف إسكندر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م
- أرسطوطاليس السياسة، مع مقدمة في علم السياسة منذ الثورة الفرنسية حتى العصر الحاضر، بارتلمي سانتهيلير، تر: أحمد لطفي السيد، منشورات الجمل، بغداد– بيروت، ٢٠٠٩م
- الأرض اليباب الشاعر والقصيدة، ت. س. إليوت، عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٥م
- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٣، د. ت
- جماليات المكان، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٤م
- الحلم والوعي والقصيدة، مقالات في الشعر وما يجاوره، علي جعفر العلاق، إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٨م
- دلالات الأشياء في الشعر العربي الحديث (البردوني نموذجا) دراسة نقدية، ملاس مختار، اصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٠م
- دلالة المدينة في الخطاب الشعري دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، قادة عقاق، اتحاد كتاب العرب، سورية– دمشق، د. ط، ٢٠٠١م
- ديوان الأساطير سومر وأكد وآشور (الكتاب الأول) أعطني، أعطني ماء القلب أناشيد الحب السومرية، نقله إلى العربية وعلق عليه: قاسم الشوّاف، قدم له وأشرف عليه: أدونيس، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م
- الشعر والفلسفة، مارتن هيدغر، تر: عثمان أمين، دار القومية العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م
- شعرية الأشياء، ياسين النصير، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، العراق– بغداد، ط١، ٢٠١٨م
- الغزل في تاريخ الأدب العربي، أحمد الشايب، دار العرب الإسلامي، ط١، د. ت

• قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنور، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٨م
• ما قالته النخلة للبحر دراسة فنية شعر البحرين المعاصر (١٩٢٥- ١٩٧٥)، علوي الهاشمي، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط١، ١٩٨١م
• مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، شوقي عبد الحكيم، دار هنداوي، القاهرة، د. ط، ٢٠١٢م
• المرأة واللغة، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م
• مسار التحولات في فضاء القصيدة الحداثية، عصام شرتح، دار الينابيع، سورية – دمشق، ط١، ٢٠١٠م
• معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، مج٥، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م
• مفاتيح الشعرية في قصائد حميد سعيد (دراسة في حداثة الشعرية)، عصام شرتح، دار صفحات، سورية – دمشق، ط١، ٢٠١٦م
• المكان العراقي جدل الكتابة والتجربة، لؤي حمزة عباس، دراسات عراقية، بغداد- أربيل-بيروت، ط١، ٢٠٠٩م

الرسائل والأطاريح:
• شعرية الأشياء في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الواحد بن عمر، رسالة ماجستير، كلية الآداب والفنون، جامعة احمد بن بلة، وهران، ٢٠١٥-٢٠١٦م

البحوث والمقالات:
• مقدمة نظرية لدراسة المكان في الشعر، لينا الحافظ، مجلة بحوث جامعة حلب، ع٤٤، ٢٠٠٣م
• قراءة في الأساليب الشعرية قصيدة النثر التسعينية في العراق انموذجا، عباس اجريدي لفتة، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الإنسانية، جامعة واسط، مج١، ع٤٠، ٢٠٢١م.